قناة الكوراس

بقلم: أنطوان تشيخوف

في ذات يوم، وحين كانت لا تزال في جمالها وفتنتها، وروعة صوتها، جلس عشيقها وحبها نيقولا كولاباكو، في الغرفة الخارجية من منزلها الصيفي.. وكان الجو حاراً رطبة لا يطاق..

وكان نيقولا... الذي انتهى على التو من تناول طعامه، وشرب زجاجة كاملة من الخمرة الرديئة، قد ضاق ذرعا بالحر الشديد والجو الفاسد، وكانت هي مثله ضيقا وسوء خلق، ينتظران انصرام النهار، ليغادرا المنزل للنزهة وتمضية الوقت، وتنشق الهواء الطلق، والاستمتاع بطراوة الليل..

وقرع الباب فجأة..

وكان كولا باكوف قد خلع سترته، وارتدي خفاً، واسترخي على المقعد، فلما سمع قرع الباب، قفز من مكانه، ونظر إلى " باشا " صديقته.. مستفهماً..

وقالت المغنية:

– لا بد أن يكون الطارق ساعي البريد، أو احدى الفتيات..

ولم يكن يهم كولا باكوف ان يشاهده ساعي البريد، ولا ان يراه صويحباتها عندها، ولكنه رأى من باب الحيطة ان يجمع ما تفرق من ثيابه

ويذهب إلى الغرفة المجاورة..

وأسرعت " باشا " تفتح الباب..

وكم كانت دهشتها عظيمة لما شاهدت على عتبة الباب، لا ساعي البريد، ولا صديقة من صديقاتها، وإنما امرأة لم تكن قد رأتها قبلا، جميلة الوجه، ترتدي ثوبا أنيقا يقطع بأنها من السيدات..

وكانت المرأة الغريبة مصفرة الوجه، تلهث، وتتقطع أنفاسها، كأنها كانت تجري، أو كأنها راحت تصعد سلما ضيق طويلا عالياً..

سألتها باشا:

– ما الخبر ؟

ولم تجب السيدة الأول وهلة على سؤالها.. أجالت نظرها في الغرفة أولا، ثم ألقت نفسها على مقعد قريب، كأنها تعبة جدا، أو مصابة بمرض لا تستطيع معه وقوفاً..

وبعد ان تمالكت نفسها، وحاولت أن تجفف أثار الدموع في عينيها، قالت:

– هل زوجي عندك ؟

واهتزت " باشا " هذا السؤال.. وتولاها الخوف، وقالت وهي ترتجف:

– اي زوج ؟

– زوجي.. نيقولا كولا باكوف..

– لا يا سيدتي.. أني لا اعرف رجلا بهذا الاسم..

وتقطعت دقائق.. لاذت فيها المرأتان بالصمت.. وكانت السيدة الغريبة، في أثنائها تمسح فمها بمنديلها وهي بادية الاضطراب، فيما وقفت باشا أمامها جامدة، تنظر إليها بدهشة وذعر..

وقالت السيدة بعد قليل بصوت هادئ:

– إذا فأنت تقولين انه ليس هنا..

– أني لا اعرف الشخص الذي تسألين عنه !

وصاحت السيدة الغريبة:

– انت امرأة قذرة سيئة فاسدة.. نعم.. نعم.. انت امرأة فاسدة، ويسرني ان استطعت ان أقول لك هذا، في وجهك..

وقدرت " باشا " أنها لولا التصنع الظاهر في زينة وجهها، والذي جعلها تبدو من النساء العاديات، لاستطاعت الوقوف في وجه هذه السيدة التي كانت تلبس السواد، ويتفجر الغضب من عنها، ولما استبد بها الخوف والخجل أمامها..

ومضت السيدة تسألها:

– أين زوجي.. ولتعلمي أنه ليس يهمني إذا كان هنا أم لا.. ولكن يجب أن تعلمي أنهم قد عثروا على نقص في الصندوق، وهم الآن يبحثون عن نيقولا كولا باكوف.. لأنهم يريدون القبض عليه طبعة، وكل هذا بسببك..

ووقفت السيدة، وأخذت تذرع الغرفة، في ضيق ظاهر، وحركات

هستيرية مثيرة، فما وقفت "باشا" تنظر إليها، وقد سمرها الخوف، بحيث لم تكن تستطيع كلاما ولا حديثاً..

ومضت السيدة تقول:

– ولا بد أن يجدونه اليوم ويقبضون عليه.. وأنا اعرف الشخص الذي أوصله إلى هذه الحالة القذرة.. أيتها المخلوقة القذرة السافلة الفاسدة..

وبدت كل مظاهر الاحتقار على وجه السيدة، ثم مضت تقول:

– واعلمي أني لا استطيع شيئا.. أنا ضعيفة... هل سمعت ما أقوله، أيتها المخلوقة الفاسدة، وأنت أقوى مني.. ولكن هناك الله الذي سيدافع عن أولادي وينتقم لي.. والله عادل، وسيعاقبك على كل عبرة أرقتها، في الليالي الماضية، التي لم استطع فيها نوماً، ولا راحة.. وسيأتي الوقت الذي تذكرين فيه كلماتي هذه..

وساد الصمت ثانية على الغرفة.. وظلت السيدة تذرع أرضها يمينا وشمالا، وهي تحرك يديها، وتهز شفتيها، وظلت "باشا" واقفة في مكانها، تنظر إليها بدهشة، وتتوقع شراً مستطيرة من جراء هذه الزيارة..

وتمالكت أعصابها أخيراً وقالت:

– أني لا اعرف شيئا ما تقولينه..

وأخذت تبكي..

وصاحت السيدة:

– أنت تكذبين.. فاني اعرف كل شيء، و كنت اعرف أخبارك منذ

زمن بعيد... واعلم أنه في الشهر الماضي كان يصرف كل نهاره عندك..

وصاحت باشا:

– وماذا في هذا..؟ أني استقبل الكثيرين في منزلي.. وهم أحرار في زيارتي، ولكني لا افرض على احد منهم أن يزورني.. أو أن يأتي إلى داري..

– لقد أخبرتك بأنهم عرفوا باختفاء المال في الدائرة، ولا بد انه سرقه، لأجل مخلوقة مثلك.. لأجلك قد ارتكب جريمة من الجرائم.. اسمعي.. انت لست من أصحاب الأخلاق والمبادئ.. لقد خلقك الله للأذى والفساد فحسب.. ولكن المرء لا يستطيع ان يعتقد انك قد هويت إلى الدرك الأسفل من الفساد، وانك لم تعودي تملكين شيئا من الأخلاق والعواطف.. ان لنيقولا زوجة وأطفالا.. فإذا حكم عليه، وأرسل للسجن، فسوف نموت جوعا، الأولاد وأنا.. هل فهمت الموقف الآن.. ولكن هناك املا واحدة في إنقاذنا مما قد نتعرض له من الهوان والإذلال.. وهو أن أحصل على تسعمائة روبل، واردهم لأصحاب المال فيتركونه وشأنه..

وصاحت باشا:

– ماذا تقولين.. أي تسعمائة روبل هذه.. أني لم آخذ منه مبلغا كهذا..

– أني لا أسألك إعطائي تسعمائة روبل، فأنت لا تملكين هذا المبلغ، كما أني لا أريد مالك.. ولكني اسأل عن شيء آخر، اسأل عن الهدايا التي كان يقدمها زوجي لك، واطلب منك ان تعيدها إلي..

وصرخت باشا، وقد بدأت تفهم الموقف: – ولكنه يا سيدتي لم يقدم لي في حياته شيئا، أو هدية..

– ولكن أين المال الذي صرفه.. لقد صرف ماله ومالي وأموال الآخرين.. ما الذي حدث لهذه المبالغ كلها ؟.. اسمعي، إني أرجوك، استعطفك.. لقد قلت ما قلته في ثورة حزن عميق.. ولكني اعتذر الآن إليك، و من حقك أن تكرهيني.. فهذا حقك.. ولكن ضعي نفسك في مركزي، فما الذي كنت تفعلينه ؟ أنا أرجوك واستحلفك ان تعيدي إليه الأغراض التي قدمها لك..

وقالت باشا وهي تهز كتفيها:

– الله يعلم أنه لم يهديني شيئاً، سوى قطعتين صغيرتين.. خذيهما ان شئت..

وفتحت "باشا" درجة من خزانة التواليت، أخرجت منها قلادة صغيرة ذهبية، وخاتم فيه ياقوتة، وهي تقول:

– هذه هي كل ما أهداني إياه..

واهتزت السيدة من الغضب وصاحت:

– ما هذا الذي تقدمينه لي.. أني لا اطلب صدقة ولا إحسانا منك، وإنما اطلب منك أن تردي إلي ما ليس لك.. مما حصلت عليه من زوجي.. ذلك الرجل الضعيف البائس.. لقد شاهدتك يوم الخميس الماضي على المرفأ مع زوجي، وكنت ترتدين قلادة غالية و بعض الحلى الذهبية.. فلا

تحاولين والحالة هذه اللعب معي.. وأنا أسألك الآن للمرة الأخيرة.. هل انت مستعدة لإعادة هذه الأشياء إلي أم لا؟

– انت امرأة غريبة.. لقد أقسمت لك أن زوجك لم يقدم لي غير القطعتين الصغيرتين.. وكان كل ما تحمله معه حين يزورني بعض الحلوى..

وضحكت المرأة و قالت:

– الحلوى.. وأولاده في البيت لا يجدون ما يأكلونه.. هل ترفضين إعادة الهدايا ؟

ولما لم تجبها "باشا".. جلست السيدة على المقعد وأخذت تفكر..

وقالت أخيراً:

– ما الذي يجب عمله الآن.. إذا لم احصل على تسعمائة روبل، فانه سوف يفقد كل شيء.. شرفه، وحياته وأولاده.. وسنموت أنا والأولاد بموته..

هل على ان اقتل هذه المرأة الفاسدة، أم ان أقع على قدميها ارجوها و استعطفها..؟

وأخذت السيدة تبكي، وهي تضع منديلها على عينيها.. وسمعتها "باشا" تقول بعد قليل:

– أرجوك.. لقد خربت زوجي وسرقت ما يملكه.. فأنقذيه الآن.. وإذا كان أمره لا يهمك.. ففكري في أولاده، فإنهم أبرياء لم يتقدموا إليك بالأذى والعدوان..

وتصورت "باشا" وهي في حالتها هذه هؤلاء الصغار يقفون في الشارع، وهم يتضورون جوعا.. و قالت:

– ما الذي استطيع عمله ؟ تقولين أني امرأة فاسدة خربت نيقولا.. وأنا اقسم لك أمام الله باني لم آخذ منه غير الذي أخبرتك عنه.. ولا يوجد بيننا نحن فتيات الكوراس غير فتاة واحده لها صديق غني.. وأما الباقيات وأنا بينهن.. فإننا لا تملك صديقة غنية، ونعيش خبزنا كفافنا.. ولما كان زوجك نيقولا شابة مهذبة متعلمة فقد تقبلته صديق..

وصاحت السيدة تقول:

– أني أطالب بإعادة الهدايا.. أعيدها إلية، أنني ابكي.. واهين نفسي أمامك، وإذا أردت فاني مستعدة لأركع تحت قدميك..

وصاحت باشا خوف وذعراً.. ودفعتها بيدها، كأنما تريد أبعادها عنها..

وقررت في نفها أن هذه السيدة الجميلة تقوم بدورها كما لو كانت على المسرح.. وأنها قد تركع عند قدميها حقا، لتحرجها وتخجلها..

وقالت باشا أخيراً، وهي تمسح دموعها:

– سوف أعطيك م اعندي.. من الحلي والمجوهرات، وهي ليست من زوجك نيقولا.. فقد قدمها إلي أشخاص آخرون..

وفتحت "باشا" الدرج ثانية، وأخرجت ما عندها من الحلى والمجوهرات.. عقدة من الماس، وقلادة من الذهب، وبعض الأختام،

وأعطتها للسيدة.. وهي تقول:

– خذيها إذا أردت.. ولتعلمي أنها ليست من زوجك، ولا هو أعطاني شيئا غير القطعتين الصغيرتين.. خذيها و كوني سعيدة وأفيدي منها...

وإذا كنت حقا سيدة كما تدعين، فعليك أن تحتفظي به، وان لا تتركينه يلاحق النساء الأخريات.. فأنا لم اطلب منه القدوم إلى منزلي، ولا سألته زيارتي، لقد جاء من نفسه، و دون دعوة مني.."

وأخذت السيدة تفحص المجوهرات بدقة ثم قالت: – أنها ليست كل شيء.. وهي لا تساوي خمسمائة روبل..

و مدت "باشا" يدها إلى العلبة الصغيرة في الدرج، وأخرجت منها ساعة ذهبية وعلبة سكابر، دفعتها

إليها ورفعت يدها تصيح:

– لم يبق عندي شيء، وما عليك إلا ان تفتشي المنزل إذا أردت..

وتنفست السيدة الصعداء، وقبضت على الحلى، بيد مرتجفة، فوضعتها في منديل، ثم غادرت المنزل دون أن تودع صاحبته أو تلقي نظرة عليها..

فتح الباب من الغرفة المجاورة في هذه اللحظة..

وظهر من خلفه "نيقولا كولا باكوف"..

كان أصفر الوجه، يهز رأسه بعصبية ظاهرة.. كأنما ابتلع شيئا مراً.. وكانت الدموع تتساقط على وجنتيه..

صاحت "باشا" في وجهه:

– ما هي الهدايا التي قدمتها لي ؟ ومتى فعلت ذلك اجبني ؟

وقال كولا باكوف:

– لا أهمية للهدايا.. ولكن يا الهي.. لقد بكت أمامك، ومرغت كرامتها قدامك..

– أريد ان اعرف شيئا عن الهدايا التي قدمتها إلي ؟

– يا إلهي.. هي السيدة النبيلة.. المترفعة الفخور الطاهرة، كانت مستعدة لتركع عند قدميك.. وأنا الذي كنت السبب، وجعلتها تفعل ما فعلت..

ووضع يده على رأسه و اخذ يتنهد..

ثم مضى يقول:

– لن اغفر لنفسي هذا المشهد أبداً.. لن اغفر لنفسي أني كنت السبب في كل هذا...

« اذهبي من وجهي.. أيتها المرأة الفاسدة..» – صاح وهو يتراجع من أمامها باحتقار وغضب –... ثم قال:

– لقد كانت مستعدة لان تركع عند قدميك.. انت.. يا إلهي...

وأسرع يرتدي ملابسه وهو يشتم ويلعن، يلعن باشا.. ويلعن نفسه، ثم دفع "باشا" من أمامه باحتقار، ومضى نحو الباب..

وجلست "باشا" بعد ذهابه على المقعد.. وأخذت تبكي.. وتندب حظها وتأسف للمبادرة التي أقدمت عليها من أعطاء السيدة حلاها..

وهو عمل قد تسرعت فيه وفعلت ما لم يكن يجب أن تفعله..

وتذكرت في هذه اللحظة.. كيف ان تاجرة قد ضربها منذ ثلاث سنوات لغير ما سبب..

ومضت تعول وتبكي، بعد أن تذكرت هو انها عند الناس... وما تعرضت له منهم من ظلم وعدوان.